



بقلم الدكتور

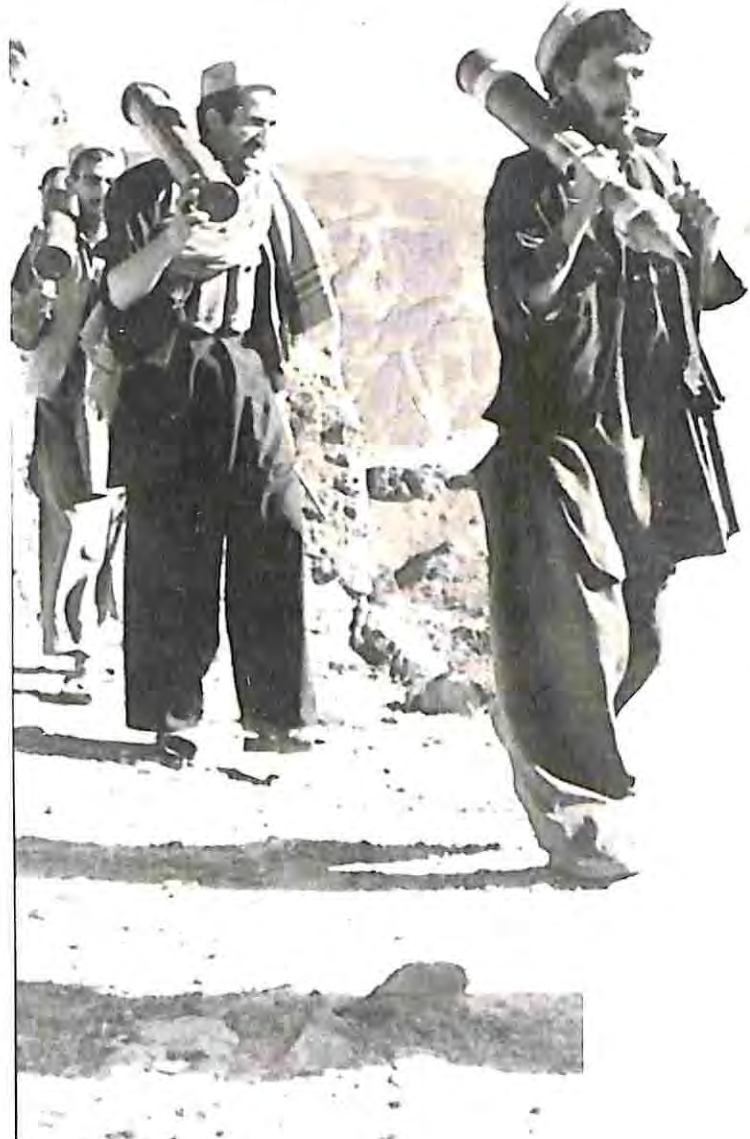
حلمي محمد القاعود

قراءة نقدية لرواية..

الهجرة من أفغانستان

تستحق رواية «الهجرة من أفغانستان» وقفة طويلة؛ لأنها تناقش بطريقة فنية أبعاد الحدث الذي زلزل كيان السوفييات وغير وجه العالم بعد حرب استمرت ما يقرب من عشرة أعوام، وكاتبة الرواية «مرآل معروف» من مواليد كابول عام ١٩٦٠م، وكان والدها يعمل في قسم الباشتو بالإذاعة التركية الموجهة إلى أفغانستان من أنقرة، فدرست هناك المرحلتين الابتدائية والإعدادية، ثم تخرجت من مدرسة مستور الغوري الثانوية للبنات في ولاية «لاغمان» الأفغانية عام ١٩٧٨م، وهو العام الذي قبض فيه الشيوعيون الأفغان على والدها وألقوا به في السجن، وكان على أسرته أن تعود إلى «جاراباغ» موطنها الأصلي، وهنا اضطرت «مرآل» إلى تدريس الإنجليزية في المدرسة الثانوية للبنات.

وبعد دخول القوات الشيوعية السوفياتية إلى أفغانستان واحتلالها احتلالاً مباشراً، أطلقت السلطة الشيوعية في كابول سراح عشرات الآلاف من المسجونين المعادين لها في مناورة دعائية مكشوفة لتخف حركة العداء للشيوعية داخل البلاد، وكان من بين الطلقاء والد مرآل، الذي أسند إليه أحد المناصب، ولكنه كان مراقباً من المخابرات الأفغانية.



● مشاهد نابضة للحدث

الذي زلزل كيان العالم وغير خريطة

استقرت الأسرة في كابول، وعملت مَرّال معلّمة للإنجليزية في مدرسة قبالا الإعدادية للبنات، وفي الوقت نفسه كانت طالبة تدرس في أكاديمية المعلمين، ومن جانب آخر كانت تستعد مع أسرتها (والدتها وأختها عائشة) للهجرة إلى بيشاور - مدينة الأنصار - في العشرين من ديسمبر عام ١٩٨٠م.

وقد أشار مترجم الرواية إلى أن أخاها الكبير كان يجاهد في داخل أفغانستان (عام ١٩٨١م) والأوسط كان يتدرب في تلك الفترة أيضاً على الأعمال العسكرية الجهادية عند الحدود. أما الأخ الأصغر فقد عمل بائعاً متجولاً في الشوارع لينفق على الأسرة، وقد لحق الوالد بمكتب أحد أحزاب المجاهدين في باكستان للعمل في شؤون المهاجرين.

وعندما تركت «مَرّال» أفغانستان وهاجرت إلى بيشاور في باكستان واستقرت هناك عملت بالتدريس في المرحلة الإعدادية للبنات، وانضمت لاتحاد النساء لرعاية أسر المهاجرين الأفغان (٢).

- ٢ -

يقوم ببناء رواية «الهجرة من أفغانستان» على ثلاثة أجزاء أو روايات فرعية متتابعة تحكيها الكاتبة على لسان أبطالها، فالجزء الأول، أو الرواية الأولى تتضمن هجرة أسرة الكاتبة من ولاية لاغمان إلى بيشاور، وتقوم الكاتبة بدور الرواية، أما الرواية الثانية، وهي أقصر الروايات الثلاث فيحكيها بطلها الإمام (إمام المسجد) البخاري الأصل الذي هاجر قبل عشرات السنين من بخاري إلى

أفغانستان، ويحكي قصة الهروب أمام الزحف الوحشي الشيوعي على الدول الإسلامية في القوقاز وما حولها.

وفي الرواية الثالثة تقوم «مَنور» صديقة مَرّال برواية قصة هجرة أسرتها إلى بيشاور وتشاركها في الحكي شقيقتها فضيلة.

الروايات الثلاث أو الأقسام الثلاثة في «الهجرة من أفغانستان» لها دلالتها وغايتها في الكشف عن جوانب القهر التي لاقاها الأفغان وأشقاؤهم في القوقاز على يد الروس الشيوعيين، وأعاونهم من العملاء الخونة، كما تبرز جوانب المقاومة الباسلة ضد الغزاة ومعالمها الواقعية والفكرية.

شهدت مَرّال عملية الهجرة، وخاضت تجربتها، وعانت متاعبها، وسجلت ما جرى على لسانها بعد انتهاء الهجرة، لذا استخدمت الفعل الماضي «كانت هذه ليلتنا الأخيرة في مدينتنا الحبيبة لاغمان، كما كانت ليلتنا الأخيرة أيضاً في جارباق قريتنا العزيزة...» (٣).

والحديث في الرواية عن الماضي يوحى بانتهاء الحدث ولكن أسلوبها يبعثه في الحاضر دليلاً على وحشية الشيوعيين من الروس وعملائهم وصلابة المؤمنين من المجاهدين والباحثين عن الحق.

ولم يختلف القصص بصيغة الماضي في الجزء الثاني أو الثالث عنه في الجزء الأول. فمثلاً يبدأ الجزء الثالث هكذا:

«تقول صديقتي منور:

كان عدد المجاهدين في الجبهات يزداد باشتراك الجيش في صفوف المجاهدين...» (٤).

إن الماضي هو أحداث الهجرة،

هجرة مَرّال، أو هجرة البخاري، أو هجرة منور، ولكنه الماضي الذي يسجل للحاضر والمستقبل ألواناً من القهر والمقاومة في آن، ويبشر بالانتصار في كل الأحوال.

تنتمي الرواية من ثم، إلى الواقعية الحية، الواقعية الإسلامية التي تحكي واقع الحياة اليومية للمهاجرين بتفاصيلها الدقيقة والصغيرة في الطعام والشراب والملابس والعادات والتقاليد، وتتناول طقوس الرحلة أو الهجرة من تغيير اللغة، وتقليد البدو، والصمت عند الشدة، وركوب الجمال، وتغيير الملابس وتضفير الشعر مثل نساء الجبل.... إلخ.

الواقعية الإسلامية تضيف إلى رصد الواقع وتفاصيله، التصور الإسلامي الساطع، سواء في تشبيه هجرة الأفغان إلى باكستان بهجرة الصحابة الأوائل إلى الحبشة «كنا تماماً مثل المهاجرين إلى الحبشة قبل قرون» (٥)، أو بوصفها فرضاً من فروض الله وسنة من سنن النبي عليه الصلاة والسلام، تستدعي البهجة والعمل (٦).

كما تضيف الواقعية الإسلامية إلى ما سبق السلوك الإسلامي ومظاهره: مثل الدعاء والصلاة وإيقاف الرحلة من أجلها، وعد القتال ضد الأعداء الشيوعيين جهاداً يتوج بالنصر أو شهادة في سبيل الله، وتمتزج الشهادة عند المجاهدين بالطهارة والنظافة «رغبة المجاهدين.. الرغبة الوحيدة أن يستشهد الواحد منهم وملابسه نظيفة» (٧). كذلك فإن التصور الإسلامي يقدم عبر الرواية تفسيراً لسلوك الشخصيات وتصرفاتهم، من ذلك مثلاً رؤية الأم لابنها المنحرف الذي انضم إلى الحكومة الشيوعية، وسلك سلوكاً غير إسلامي في حياته اليومية، وكان شاذاً وقاسياً مع شعبه أو مواطنيه. تفسر الأم سلوك ابنها بقولها: «نعم.. هذا.. لا

بد أن أطعمتك شيئاً حراماً! (٨).

بيد أن أهم ملامح الواقعية الإسلامية في رواية «الهجرة من أفغانستان» يتركز في وصف السلوك الشيوعي للحكومة ورجالها، ورصد المقاومة الإسلامية، وكشف اللصوص والانتهازيين الذين استغلوا ما جرى لتحقيق مآرب خاصة.. مع إبراز العادات والتقاليد والخصائص السائدة في أفغانستان.

وقد أفاضت الرواية من خلال تلقائية وعفوية بسيطة توضيح موقف الشيوعيين الأفغان من الإسلام والمجاهدين والروس، وتحدثت عن وحشية هؤلاء وعملائهم من الأفغان، إن هؤلاء العملاء الأفغان يرون المجاهدين كفاراً يستثمرون المعتقدات الدينية لاستخدام الشعب ضد الحكومة، ويرونهم أيضاً أغنياء يحاربون الحكومة التي تقف إلى جوار الفقراء، ويحظون بمساعدة أمريكا.

كما يعدّ العملاء الأفغان العرب «وضياء الحق» من ألد أعدائهم، أما روسيا فهي صديقتهم الوفية التي تقدم لهم العون والمساندة من أجل خير البلاء (٩).

إن العملاء الأفغان يقلبون الحقائق ويزورون الواقع لإثبات أنهم على صواب، ولعل كلام الضابط الأفغاني الشيوعي لأسرة «منور» التي وقعت في كمين الحكومة الشيوعية، وهي تهاجر إلى باكستان يكشف معالم الكذب الشيوعي الخادع، يقول الضابط الشيوعي وقد منع الماء عن المهاجرين:

«حسناً، ها أنتم مذنبون، والآن سأسألكم بعض الأسئلة: لماذا تهربون إلى باكستان؟.. مادامت الفواكه هنا كثيرة ومتوفرة والمياه والكوكاكولا باردة كالتلج؟ لماذا إذا تشاركون الفقراء الذين يعيشون هناك ويدعون أنهم مهاجرون؟ لماذا تشاركون الشعب الفقير هناك على حساء العدس

ولا يجدون غيره؟ أليس لديكم فكرة عن كيفية حياتهم؟ أبعادوا أيديكم عن الماء. أو على الأصح ودّعوه وداعاً أبدياً، فالأكل هناك عبارة عن خبز جاف.. وستشربون حساء لحم البقر في أيام الأعياد، وإلا فإن أفغانستان

بلد كالجنة.. تنسون جوها البارد وماءها البارد وأكلاتها الجميلة، وتجرون للذهاب إلى هناك، إذا سمحتم قولوا لنا هل كنتم تعرفون هذا؟» (١٠).

وينسى الضابط الشيوعي أن المهاجر يهرب بدينه وحرية، حيث لم يعد في الوطن المحتل بالجيش السوفياتي وعملائه الشيوعيين المحليين مكاناً لدين أو وجوداً لحرية، وهو ما عبرت عنه أقوال الشيوعيين وسلوكهم، فكثيراً ما تكررت استهانتهم بالله واستهزاؤهم به، تأمل مثلاً قول الضابط لمنور بعد أن وقعت الأسرة المهاجرة في قبضته:

«استدعي ربك، فليأت ولينقذك!.. فإذا



● هجرات متعددة..

لكن الأمل يبشر بمستقبل أكثر إشراقاً

لم يأت فسوف نرسلك إليه...».

أو قوله لها أيضاً:

«ارفعني رأسك، وانظري إليّ واستمعي! حتى الله لن يستطيع أن ينقذك من يدي، اعلمي هذا جيداً...» (١١).

أما الواقع فقد حمل كثيراً من نماذج الوحشية الشيوعية ضد الشعب بصفة عامة والمتمسكين بدينهم بصفة خاصة مثلاً: تورد «منور» طرفاً من سيرة القاتل الشيوعي المتوحش «شملا دار»، فتقول: «إن هذا الرجل فعل ما فعلوه مع سيدنا بلال في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، أمر شملا دار هذا بربط ثلاثة مجاهدين بعد القبض عليهم إلى جرار، ثم أمر بوضع صخور شديدة الحرارة والسخونة، ضخمة على صدورهم، وأمر بعد ذلك باستدعاء أمهات المجاهدين الثلاثة وأخواتهم، وقال لهن: «انظرن! من منهنم يا ترى سيموت أولاً؟» ثم أمر بتشغيل الجرار وأمر بسحل الشبان هؤلاء، بين شجيرات الصحراء وأحجارها، ثم أمر بضرب الأمهات والأخوات بالسوط لأنهن صرخن، ثم أمر بتكويم أجساد الشهداء الثلاثة بعد أن قُطعت أوصالاً، ثم أمر بإعدام أمهاتهم هناك رمياً بالرصاص.

أما أخوات الشهداء الفتيات فقد أمر بالقائهن داخل الدبابات فأخذتهم هذه إلى أماكن مجهولة» (١٢).

تورد الرواية نماذج عديدة لهذه الوحشية الشيوعية البشعة، ولكنها في الوقت نفسه تتحدث عن مظاهر المقاومة الباسلة والشجاعة التي انتظمت أغلبية الشعب الأفغاني المجاهد، من خلال كتائب المجاهدين،

أو على مستوى العامة رجالاً ونساء، حيث تقوم عملية الجهاد والرفض للاحتلال والشيوعية على أساس فكري واضح، يدرك أبعاد الإجرام الشيوعي، ويفقه التصور الإسلامي للمقاومة والحياة جميعاً.. يقول زعيم من زعماء المجاهدين لبعض الشيوعيين الأفغان:

«ها هي ذي هدية الشيوعية! تقول: اضرب كل من يقف أمامك مهما كان حتى والدك والدتك! تقول: إذا لم يكن لوالديك نفع عندك فاقض عليهما! امحهما من الوجود، أليس كذلك؟! أما مرشدنا نحن فهو هذا الذي في أيدينا الآن، إن القرآن عظيم الشأن، وما دمنا ننهج طريقه الذي أمرنا به فلن ننحرف عنه إن شاء الله» (١٣).

ترصد الرواية مشاهد المقاومة العديدة بعد إعلان الجهاد وتشكيل كتائبه، بدءاً من تطبيق اللافتات التي تذكر بالأبطال القدامى مثل: «أحمد شاه بابا» والوزير «أكبر خان» الذي ضرب «ميكنتاتين» على مائدة الاجتماع، وتشير إلى أن الجهاد فرض فرضه الله تعالى، وأن الشعار يجب أن يكون: الغزو أو الشهادة، مع آيات قرآنية دالة، يمزقها جنود «بابار» دون احترام، إلى قيام الشعب وأفراده بتأديب الخونة والمنحرفين (انظر قصة الخائن «علي» الذي ظلت الأم وكتبتها «زوجته» تضربانه ضرباً مبرحاً، ثم تقيّدانه بعد أن وقع في قبضتهما، وذلك بالجزء الثالث من الرواية)، بل إن الشيوخ والنساء الذين لا يستطيعون القتال، يبدلون كل ما يمكنهم تقديمه لينالوا شرف المساهمة في الجهاد ولو بتقديم كوب من الماء، فهذا هو ذا الشيخ الطاعن في السن

يقول من خلف الباب مخاطباً مرال وهو يبكي:

«آه.. يا بني، ما معنى هذا؟ وماذا قدمت أنا لهؤلاء الذين يحاربون في سبيل الله وللمهاجرين في سبيله، لكي أكسب رضاء الله ذي الجلال؟ روحي ومالي وأولادي فداء في سبيله، وما أسعدني لو قدمت كوباً من الماء عوناً للسائرين في هذا السبيل...» (١٤).

لقد قدمت الرواية صورة واقعية للشعب الأفغاني تفيض بالتضامن والتعاون في سبيل الجهاد والمقاومة، تقول مرال في ختام قصتها الأولى معبرة عن ضرورة مساندة المجاهدين: لا يهم أن أجوع، لكن المجاهد لا يبقى جائعاً، ذلك لأنه هو الذي يعمل على إحياء الإسلام، إنه هو الذي يحافظ على الأرض التي سيرفرف عليها علم الإسلام بأمر الله عز وجل» (١٥).

ولكي تكتمل الصورة الواقعية لرواية «الهجرة من أفغانستان» فإنها تقدم صورة لفريق ثالث من الشعب الأفغاني هو فريق المنافقين، ويضم اللصوص الذين يستغلون المهاجرين ويدعون أنهم من المجاهدين، ولكن المجاهدين يطاردونهم ويؤدبونهم، ثم إنهم يقومون بعمل خيائي كبير، حيث كانوا يستخدمون أكثر من مائة سيارة نقل تعمل في منطقة الحدود، وهناك كانوا يتفقدون على نقل المهاجرين إلى بيشاور، ولكنهم كانوا يسلمونهم إلى الحكومة الشيوعية.. وقد قدمت الرواية نماذج لهؤلاء المنافقين رجالاً ونساء.

ومما لا يتناقض مع الواقعية الإسلامية بل هو ملمح من ملامحها، الثقة في نصر الله وتأييده، فقد قدمت الرواية إرهاباً مبكراً بنصرة الله للأفغان وهزيمة الشيوعيين والسوفييات، فقد جاء على لسان إمام المسجد البخاري: «وستكون أفغانستان قبراً للروس ولكل شيوعيي الدنيا، في داخل نفسي صوت يقول

«أفغانستان حرة، وهذا الشعب يحارب من أجل تحرير بخارى، ومن أجل آلاف المناطق الإسلامية الأسيرة» قال الرجل هذا وأنا معه فيه؛ لأنني أتق أن هذا هو الواقع إن شاء الله» (١٦)، وقد تحقق الكثير منه بفضل الله.

- ٣ -

يلعب المكان هنا دوراً مهماً، فالهجرة تعني الانتقال من بيئة إلى أخرى، وعادة تكون البيئة الأولى أكثر تأثيراً في المهاجر؛ لأنه ارتبط بها ارتباطاً وجدانياً، حتى لو كانت صحراء مقفرة جرداء، فما بالك والمهاجر قد عاش في بيئة جميلة خضراء، وينتقل عبر الجبال الوعرة وماطرأ عليها من ظواهر بشرية تجعل عبور هذه الجبال أشد وعورة وخطورة ومشقة؛ ثم إن البيئة الجديدة التي ينتقل إليها المهاجر بيئة فقيرة مكتظة بالمهاجرين البائسين الذين يعيشون حداً أقل من الكفاف؟

إن الرواية تقدم لنا البيئة بتفاصيلها وأهلها حيث تتطابق الهجرة مع البيئة، ويتباين الناس مثل تباين البيئة، فهناك الحضارة والبداءة واختلاف الملابس والعادات والتقاليد والتعليم والثقافة ونظام المساكن... إلخ. وهناك السهول والوديان والمروج الخضراء والغابات والهضاب والجبال الخشنة والطرق الوعرة... إلخ.

إن المكان يغدو قريباً للاستقلال حين يستطيع المرء البقاء فيه والعيش على ترابه، ولكنه حين يصبح مجالاً للمطاردة والمحاصرة والقهر وبخاصة للضعفاء الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهدون سبيلاً، مثل الأطفال والنساء، فإنه يتعين على أصحابه أن يتركوه مهما كان جميلاً وعظيماً حتى يعودوا إليه أقوىاء يحافظون على كيانه وهيبته. وهذا ما جرى بالنسبة لمرال وأسرتها، والبخاريين، ومنور

وأسرتها.. مثلاً بيت مرال من البيوت الحضرية الجميلة، وترتبط به البطلة حتى في فصل الصيف حيث الحر والهجير، ولكنها تتركه عندما يبدأ الجهاد، لأن البقاء في البلاد لا يصلح إلا للمجاهدين الرجال، وأهل الجبال الذين يعيشون في موانع طبيعية تجعل من الصعب على الشيوعيين الأشرار الوصول إليها، تقول مرال عن بيتها:

«أما بيتنا، فكان على شكل فيلا جميلة تتكون من طابق واحد. حوشنا كان كبيراً جداً، فيه الورود والأزهار من كل لون، كان من عادة أهل قريتنا النوم في فصل الصيف في شرفات منازلهم، في ذلك الوقت كنا ننام - ونحن في أفغانستان - ورائحة الورود تملأ بعبيرها صدورنا، لم أكن أحب مغادرة بيتنا هذا في إجازات الصيف عندما كنا نذهب لقضائنا في كابول، لكن الآن اختلف الأمر، فمهما كنت أحب بيتنا هذا، فالحب مسألة أخرى؛ لأننا كنا نغادره ولا ندري متى نعود إليه» (١٧).

ويبدو المكان شريكاً بصورة ما في أحداث الرواية، أو قل في الصراع بين الشعب الأفغاني المسلم والعدو الشيوعي الشرير، فالجبال تبدو طريقاً آمناً لهجرة الرجال؛ لأنها صعبة على الغزاة وقاسية، أما الطرق الاعتيادية فإن رجال السلطة يقفون فيها بالمرصاد للقبض على الشباب والذهاب بهم قسراً كي يؤدوا الخدمة العسكرية، فضلاً عن وجود الدبابات في كل الشوارع وبجوارها سيارات نقل صغيرة جاهزة للعمل.

إن الاحتلال الشيوعي والحكومة العميلة قد أثرا في المكان في أفغانستان بصورة واضحة، فالأماكن الجميلة والمنزهات احتلتها الدبابات والجنود، أو صارت مهجورة؛ لأن الناس هجروا بلادهم أو دخلوا السجون، أو ذهبوا إلى الجهاد، تقول

مرال:

«وأخيراً خرجنا إلى الطريق الأسفلتي، كان العبور من هذا الطريق في وقت من الأوقات في مواسم الشتاء، تعتوره صعوبات جمّة، ذلك لأن هذا المكان ويسمى «قاما» مكان تنزّه، شتاء تأتي كابول كلها هنا، ولكن منذ أن أتى طرقي (أول رئيس عميل بعد الانقلاب الشيوعي)، فالبعض في الخدمة العسكرية، والبعض في السجون، والبعض أصبح في الجبهة يجاهد، والبعض استشهد، والبعض مات في الجبهة؛ لأنه أخذ إليها عنوة» (١٨).

وقد صارت المدن شريكاً بالفعل في الصراع الدموي بين المجاهدين والشيوعيين، فمثلاً مدينة «موماند» لا يحبها المجاهدون، ولا يحبون أهلها ولا يشقون بهم؛ لأن بها جماعتين إحداهما موالية للمجاهدين، والأخرى موالية لبابراك (الرئيس الشيوعي) ومثلها أيضاً مدينة «شينوار»، ثم «بدخشان» أول قرية في بخارى تعلن الثورة في مواجهة روسيا مباشرة، وهكذا فلكل مدينة وقرية تاريخ مع الجهاد أو ضده.

إن الرواية تعطي صورة شاملة لأفغانستان وكثير من مدنها وأهلها بعاداتهم وتقاليدهم، وتشير إلى الحياة البسيطة المتواضعة التي تحياها جموع الناس هناك، وطبيعة بناء المساكن والبيوت والمساجد.

وتعود أحداث الرواية إلى السنة الأولى من إعلان الجهاد ضد الشيوعيين والاحتلال السوفياتي الشيوعي لأفغانستان (عام ١٩٨٠م تحديداً)، حيث بدأت عمليات الملاحقة والمطاردة للمجاهدين وأسرههم، ولم يكن أمام النساء والأطفال والعجائز إلا الرحيل عن الوطن، وبقاء المجاهدين في الجبهة لمواجهة العدو الشيوعي. بيد أن الجزء الثاني من الرواية يعود إلى الوراء - عن طريق التذكّر -

● صرخة شيوعية:

اضرب كل من يقف في وجهك..
حتى والدك ووالدتك!!

عشرات السنين، زمن الغزو الشيوعي لبلاد القوقاز وبخاري، أو ما يعرف الآن بالجمهوريات الإسلامية التي استقلت عن الاتحاد السوفياتي بعد انهياره.

الزمان الروائي عموماً يمضي متدفقاً إلى الأمام، يتوقف أحياناً لسرد بعض الأحداث الماضية، ويظهر ذلك جلياً في الجزء الثالث من الرواية، حيث يتعدد الرواة.

ويبقى الزمان الروائي يتحرك في إطار محدود، أو فترة محدودة نسبياً هي فترة الهجرة من أفغانستان في أوائل الحكم الشيوعي لكابل. فقد جرت بعد هذه الفترة مياه كثيرة في نهر الأحداث الأفغانية حتى انسحاب الجيش السوفياتي وسقوط الحكم الشيوعي العميل وتولى المجاهدين السلطة، وتمزيق أفغانستان مرة أخرى بين أشقاء الجهاد الذين مازالوا يتقاتلون حتى كتابة هذه السطور.

- ٤ -

لا تركّز رواية «الهجرة من أفغانستان» على شخصية بعينها، فهي رواية حدث وهو الهجرة وما يتعلق بها - لذا لا نرى شخصية مضادة فنياً من الداخل بصورة لافتة، ولكننا أمام شخوص جاهزة على الجانبين، المجاهدين والكافرين، وبينهما فريق المنافقين..

بيد أنه يمكن القول: إن بعض الشخصيات في الجانب الإسلامي، وخصوصاً مرال وأختها عائشة وأمهها، ومنور وأختها فضيلة وإمام المسجد البخاري، يتحركون

ويتفاعلون بمشاعر حيّة وعواطف دفاقة، ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة الحدث الذي واجهوه، وهو الهجرة أو الفرار من الأعداء.. إننا نراهم وهم سيكون خوفاً وهلعاً، وهم يفرحون كلما لاحت بوادر النجاة، وهم يتعيون من السير ويستريحون بعد العناء، يرون الجمال فيسعدون ويشاهدون القبح فيكتئبون.. باختصار نراهم في حالة سلوكية إنسانية تؤكد انتماءهم إلى عالم الواقعية، ولأن معظم هذه الشخصيات من النساء، فإننا نراهن في الدائرة الأنثوية التي هي مجالهن الطبيعي أكثر مما نراهن في مجالات فكرية أو فلسفية.. وإن لم تختف هذه المجالات من دائرتهم الأنثوية، فالجهاد قد أحدث مفعوله الفكري والعقدي، وجعل الجميع يهتم به، ويتحدث في شؤون، ويصطلي بمضاعفاته وأعبائه، بيد أن الاهتمامات الأنثوية تبقى هي الأساس، وذلك يرجع بالطبع إلى كون البطلة أو الراوية تعبّر عن عالم الأنثى في مواجهة أعاصير الاحتلال والكفر التي تكتسح وطنها المسلم الأبي.

تقدم الرواية شخصيات كثيرة جاهزة نراها من الخارج ولا نراها من الداخل، إنها شخصيات نمطية، لأنها موجودة بكثرة وغزارة على الجانبين.. مثلاً هناك شخصية القائد عبدالحق، كان قائد جبهة عنبر، وكان المحتلون يبحثون عنه، ويفعلون كل ما في وسعهم للإمساك به، علقوا صورته على الجدران في «لاغمان» وفي «جلال آباد»، وكتبوا تحت الصورة: «جائزة ٦ ملايين لمن يقبض عليه»؛

لأن عبدالحق كان يقض مضاجعهم، ولا يترك لهم فرصة يرتاحون فيها. كان عبدالحق نموذجاً للقائد المجاهد الذي ينبته الشعب في كل مكان، ليس متفرداً في ذلك؛ لأن هناك آخرين مثله كثيرين في كل أرجاء الوطن يجاهدون.

عبدالحق وأمثاله، يمكن أن نعدّهم شخصيات بالسماع أقرب إلى الخيال، لأننا لم نراهم وهم يخوضون لوج الحياة وصراعاتها أمام أعيننا، ولكن حدثتنا عنهم مرال، وهي شخصيات حقيقية قامت بدور حاسم في ميدان القتال.

ومثل عبدالحق «خليل أحمد» هذا الصبي الذي كان يطلق عليه في قريته اسم «المجاهد الصغير»، لقد فقد ثلاثة أصابع كاملة بقنبلة يدوية، عندما كان يحاصره الكفار الذين كانوا يملكون دبابات كثيرة.

ومثل هذه الشخصيات السماعية شخصية زعيم أحد الأحزاب الأفغانية الذي كان اسمه يلقي الرعب في قلوب الحكومة العميلة وأتباعها، وغير هؤلاء كثيرين على امتداد الرواية.

كذلك نجد على الجانب الشيوعي شخصيات عديدة ترسمها الرواية من الخارج، وقد مرّت بنا في الفقرة السابقة، صورة القائد الشيوعي المتوحش «شملادار» وما فعله بالمجاهدين الثلاثة عند إعدامهم وإعدام أقاربهم، كذلك مرت بنا صورة الخائن «علي» الذي أسرته أمه وزوجته بعد أن وقع في قبضتهما لتقديمه إلى المجاهدين لمحاكمته، وهناك نماذج عديدة للضباط الشيوعيين والمحتلين قدمتها الرواية، ولكنه تقديم من الخارج في كل الأحوال، ولم تنس الرواية أن تقدم صورة خارجية مقوّزة للمرأة الشيوعية، روسية أو أفغانية، في ملابسها وسلوكها وتبذلها، وعادة ما تظهر المرأة الشيوعية في نقاط

التفتيش على الطرق والمعايير.

وتشير الرواية إلى شخوص حكام كابول الشيوعيين بأسمائهم مجردة، ولكنها إذا وصفت بعضهم فإنها تصفه بأوصاف الكفر والعمالة والخيانة، بل إنها غالت في وصف «بابرك كارميل» الحاكم قبل الأخير في النظام الشيوعي ووصفته بأنه «ابن الكافر هذا» (١٩)، والذي أعلمه أن أباه كان رجلاً صالحاً، وقد تبرأ منه في عهد الملكية أمام المسجد الجامع في «كابول» لما رأى انحرافه ومروقه وانضمامه للحزب الشيوعي.

وعلى أي حال، فإن الرواية تهتم بالحدث أساساً، ولا يضيرها أن قدمت الشخصيات جاهزة ومن الخارج؛ لأن معالم المحنة الأفغانية كانت أكبر من كل الشخوص والأحداث.

- ٥ -

لا نستطيع أن نحكم على أسلوب الكاتبة وصياغتها من خلال الترجمة، بقدر ما نستطيع الحكم على الترجمة نفسها، فقد قدم المترجم صياغة صافية في مجملها تتميز بالدقة والوضوح وجمال الأداء العربي، واجتهد - فيما يبدو - لتقديم روح النص الأدبي كما صاغته «ميرال معروف» في لغتها الأصلية

وهي «الأردو».. ومع

ذلك فإننا نستطيع أن نجتهد في الحديث عن بعض ملامح الأسلوب الروائي في «الهجرة من أفغانستان» من خلال بعض الصياغات العامة أو الظواهر المشتركة بين اللغات..

ونفهم من السياق الروائي أن هنالك ثلاث لغات يتكلمها الأفغان هي الأردو، والفارسية، والباشتو، والأولى أكثر شيوعاً، والثالثة يتحدث بها البدو الرحل في سهولة ويسر، في الوقت

الذي يجد أهل الحضر صعوبة في التعامل بها.

وقد أورد المترجم ألفاظاً وعبارات باللهجات المحلية في أفغانستان وأردفها بالعربية من قبيل:

«نيو دشمان ماراكوش - ومعناها: لا، فتلك النسوة أعداء، وقد يقتلنني».

«خوب بيبا - ومعناها، حسناً، إذا هياً».

«مجاهد مجاهد، خدانيه داري تو».

«بي ميراد بي ميراد دوشماني خونخاري تو»

وهو نشيد للمجاهدين معناه:

«أيها المجاهد، أيها المجاهد، أعانك الله وحفظك»

«فليمت، فليمت عدوك شارب الدماء» (٢٠).

ولعل المترجم أراد أن يشعروا - وخصوصاً في هذا النشيد - بالإيقاع الموسيقي للغة الأردية. ولكن الظاهرة الواضحة في أسلوب الرواية، هي

اتكاؤها على معجم إسلامي واضح، سواء في المفردات أو التعبيرات أو الاقتباسات، إن هذا المعجم يتبدى في السلوك والفكر والوصف، ويمكن لقارئ الرواية أن يطالعه عبر صفحاتها جميعاً. لنقرأ هذه الفقرة مثلاً:

«فليكن كتاب الله معكما طوال الطريق، هيا سموا الله وابدؤوا المسير»

«نظرنا لآخر مرة إلى منزلنا ودموع أعيننا تنهمر، ترى هل سنرى هذا المكان بعد ذلك فيما بعد؟ هل سنرى جدتنا صاحبة هذا الوجه النوراني؟ يارب متعنا بالإسلام، وأعدنا إلى الوطن وألحقنا بشعبنا.. آمين» (٢١).

إن مفردات العبارة تشير إلى إسلامية المعجم كتاب الله، سموا الله، الوجه النوراني، الدعاء الإسلامي يارب متعنا بالإسلام.. آمين.. مما يعني أن تصوّر الكاتبة لقضيتها تصوّر إسلامي خالص، وسوف نلاحظ أن الدعاء في الرواية كثير، وأنه يزداد في المواقف الحرجة والأزمات ومنه: يا رب! كن في عوننا، احفظ عبادك العاجزين، احفظهم من شر الشياطين من المفسدين أمثال هذا الرجل، آمين» (٢٢).

وتقول منور: «لكني لم أنس الدعاء، زوجة أخي كانت تتلو سورة يس وهي تبكي» (٢٣).

ومع ذلك فإن الرواية تحرص على أن تورد نطق البدويات لبعض الأسماء بطريقتهم المضحكة، فهن مثلاً: ينطقن اسم «لينين» الزعيم الشيوعي السوفياتي باسم «نايلوق» ويتحدثن عنه في مواقف دالة تتجاوز طريقتهم المضحكة إلى ما هو أعمق، وهو إفساد التعليم والشعب المسلم. «يقولون: إن البنات والصبيان في المدرسة

يقرأون كتب

النايلوق

وكتب غيره

من

الكفار» (٢٤).

وذلك بالطبع

بدلاً من

القرآن الكريم

والحديث الشريف.



بيد أن اللمسة الواضحة في أسلوب مرال الروائي، هي اللمسة الأنثوية التي تمثل خصيصة من خصائص المرأة عموماً، فهي تتحدث دائماً عن جمال المرأة، وجمال البدويات الأفغانيات المشهور الذي يشمل أكبر مسنة فيهن إلى أصغرهن سناً، والعروس الجميلة، والشابة الجميلة، والمرأة الرقيقة الجميلة... إلخ..

كذلك تتحدث عن البكاء والدموع بغزارة، وما أكثر ما تبكي النساء في الرواية بسبب كثرة الظروف الصعبة اللاتي مررن بها، ومواقف الفراق والوداع اللاتي عشنها، والبكاء ليس قاصراً على النساء، ولكنه يتعداهن إلى الرجال وخصوصاً الكبار والأطفال.

وتقدم الرواية بعض التعبيرات المتميزة التي يرتبط بعضها بالوصف الإسلامي مثل: «النظام المرتد» - بابر الدمية - أكثر من مائة روس وخائن يأخذون طريقهم إلى جهنم» - تعبيراً عن قتلهم على يد المجاهدين - «يرسل أكثر الأشخاص سادية في مدرسة لينين» - كناية عن القادة الشيوعيين المتوحشين - «التعذيب الذي لم يجده في الكتب الأربعة» (٢٥). وهناك بعض التشبيهات الطريفة في وصف توحش الشيوعيين مثل: «عيناه كأنهما أنيتان من الدم» (٢٦) وتستفيد الكاتبة في أسلوبها ببعض الأمثال المحلية فتضمنها في موضعها بطريقة جذابة ومؤثرة مثل: «الأخ عمود القلب».

تبقى الإشارة إلى الحوار في الرواية، ومع أنه لا يمثل ظاهرة حادة فيها، ولكنه يعطي أضواء كاشفة على الأحداث، ويتميز بالاختزال والعفوية والواقعية، مثل هذا الحوار الذي جرى بين مرال والعم الذي يقود قافلة الهجرة عندما كثرت المخاوف والهواجس في رأسها:

«يا عم!

عندما دمر الاحتلال الشيوعي المعاني الإنسانية الجميلة.. حتى الذكريات..

الأحداث التي مرت بالأمة الإسلامية مع مطلع القرن الخامس عشر الهجري، وصاغته مؤلفته في سياق عفوي بسيط مؤثر يستحق كل تقدير واهتمام.. وليت عملها يكون حافزاً لأدبائنا في كل مكان على تخليد الملحمة البطولية للشعب الأفغاني المسلم في انتصاره على الشيوعيين، بعيداً عن توابعه الأخيرة المؤسفة التي لا تنتمي إلى الإسلام.

■ الهوامش:

(١) الهجرة من أفغانستان، ترجمة محمد حرب، دار القلم دمشق، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، وتقع في ١٧٨ صفحة من القطع العادي (المتوسط) ١٧ × ٢٤ سم.

(٢) انظر مقدمة الرواية، ص ٧-٨.

(٣) الرواية، ص ٩.

(٤) الرواية، ص ٩٩.

(٥) الرواية، ص ٧٧.

(٦) انظر ما قالته شبناز لمرال، ص ١٨.

(٧) الرواية، ص ١٠٣، وانظر أيضاً على سبيل المثال صفحات ٣٦، ٢٨، ٣٠.

(٨) الرواية، ص ١٤٨.

(٩) الرواية ص ٤٠، ٤١، ٤٧، ١٠٩، على سبيل المثال، وضياء الحق كان رئيساً لباكستان عند بدء الجهاد.

(١٠) الرواية، ص ١١٥.

(١١) الرواية، ص ١٣١، وانظر أيضاً ص ١٣٠، ١٣٧.

(١٢) الرواية، ص ١٥٥، وتقدم الرواية صورة موازية للوحشية الشيوعية في بخارى قديماً من خلال قصص التعذيب المؤثرة، وإجبار المسلمين على الكفر، التي ترويه البخاريات المهاجرات، انظر نماذج لها ص ١٩-٢٠.

(١٣) الرواية، ص ٨٠٢.

(١٤) الرواية، ص ٣٥.

(١٥) الرواية، ص ٨٤.

(١٦) الرواية، ص ٩٧.

(١٧) الرواية، ص ١١-١٢.

(١٨) الرواية، ص ٣١.

(١٩) الرواية، ص ١٤٩.

(٢٠) انظر، صفحتي ٢٦، ١٢٢ من الرواية.

(٢١) الرواية، ص ٢٠.

(٢٢) الرواية، ص ٥١.

(٢٣) الرواية، ص ١١٢.

(٢٤) الرواية، ص ٦٣.

(٢٥) انظر على سبيل المثال، ص ٩٠ في الرواية.

(٢٦) الرواية، ص ٥٣.

نظر إلى الخلف وضحك قائلاً:
- وما هذا؟ هل ثم مكان متعب!
- لا، لا شيء من هذا، كنت
سأسألك شيئاً.

- قولي يا ابنتي، ماذا هناك؟
- يا عم، أنت تطرق دائماً هذه
الطرق، أليس كذلك؟

- نعم، يا ابنتي، ولماذا سؤالك؟
- كم أسرة من قبلنا اجتزت بها
الحدود؟

- كثيرة يا ابنتي، قبلكم بشهر
نقلنا عائلة الشيخ مالك المفتي، ذهبت
أسرته من الطريق نفسه الذي
ستعبرون منه، لكن الشيخ مالك
المفتي ذهب هو وأولاده عبر جبال
بائدة.

- عمي! كم مرة يقوم الروس
بالتفتيش في الطريق؟

- ليس هذا معروفاً يا ابنتي إذا
أخافهم المجاهدون الأسود، فإنهم
سرعان ما يهربون، وأماكنهم غير
معروفة..» (٢٧).

وبعد:

فإن رواية «الهجرة من أفغانستان»
عمل أدبي يضئ حدثاً من أخطر

النسر الشهيد

للشاعر الفلسطيني

أحمد فارس(*)

تُبُّ عن الرِّدة
رابط
هو ذا وكرُ قُرَيْظِيٍّ دخيل
دقي مسماراً زعافاً
تَحْتَ مَدْمَاكَ مُسْمَى
في جدار،
في الخليل
فليكن نذراً عليك
أيها المجبول من طين الوفاء
«لا مقام لليهود في المدينة
لا مقام لليهود في المدينة»
هل نراك
يا قواماً تشتهي البندقية
فارساً صليداً همماً
دوخ الأعداء كركاً وانتقاماً
رغم صخر الهم،
والخصم المقيت،
ظل مغواراً، مكرراً
ما تَرَجَّل!!

حينذاك
تنهض الأقواس،
تعلو في سماك
ثم غار يا عزيزاً
يعتليها في وقار
يخفص الأغصان ذلاً
للأراجيح الصغار

■ ■ ■

يا قرابين الفداء،
يا طيوراً
هدها الترحال في كل سماء
هل نرانا
مثل سرب، لا فرادى
وخفافاً وثقالاً
نتباري
نفتح الجرح على الأبواب
للأقصى اعتذاراً
حينذاك
جملة الدم ستلغي كل بُدْ
في موثيق الخفاء

(■) شاعر إسلامي من فلسطين المحتلة،
ولد في جنين القسّام عام ١٩٥٧م، له
ديوان شعر تحت الطبع.

ما رأينا
أيهذا العابد المفتون شيخاً
أن صوام السنين الموجعات
دون عذر
آخر الأيام، أفطر.
ما رأينا
يا شموخاً كان يوماً
ضارباً عرض الفضاء
أن نسراً
صار للخفاش عيناً
ترصد الأحرار
في كل سماء
ما رأينا
أيهذا الفارس المدبر جهراً
أن حرّاً
طرز الأيام كركاً
آخر الجولات أدبر
ما رأينا
أيهذا الحارث الممشوق قدّاً
أن ظريف الطول
من ذل
تقرم

■ ■ ■

هم غرونا
عبر أحقاد دفينة
واستعانوا بخلافات القبيلة
وكما ترصد أفعى
غيبوبة الصقر، عن الفرخ،
الصغير
باشروا بلع المدينة

■ ■ ■

ما عساك
غير إحدى الحُسنيين
ما عساك بت ترجو
بعدهما فاض المشيب!!
تلك أولى القبلتين
في حصار لا يطاق
شاقها الساري الأمين
كوكباً فوق البراق
فمتى جبريل يدنو من سماها
بجنود مردفين منزكين؟

■ ■ ■

أيها المرتد عن فعل الشهادة

